

حكاية زينة: الطَّلاق

عليَّ أن أنظرَ إلى الصّورةِ من كلِّ الزّوايا. ربَّما يَكونُ في هذا الطَّلاقِ بداية حياةٍ جديدةٍ لنا جميعًا. أمّي بِحاجةٍ إلى مساحةٍ تَفصلُها عن أبي، وهو بِدورِهِ بِحاجةٍ إلى مساحةٍ تَفصلُهُ عن أمّي، وأنا بِحاجةٍ إلى مساحةٍ تَفصلني عن خلافاتِهما، وتُعيدُني إلى كتبي ودفاتري وحياتي. يَكفيني أن أرى أمّي سعيدةً، وأن أرى أبي سعيدًا، وأن أشعرَ بِمحبَّتِهما لي، وللحياةِ الَّتي قرّرا أن يُكملاها كلٌّ في اتّجاه.

ISBN 614-402-507-9
9 786144 025079
Book # A 626
أصالة
للنشر والتوزيع

الإهداء : إلى صديقاتي اللّواتي عشْن معي

حلو حياتي ومرّها ، وقرأن بقلوبِهنَّ ما بقلبي .

سناء

دار النهضة العربية
أصالة للنشر والتوزيع – طبعة أولى 2012
ISBN: 978-614-402-507-9

تلفون: 093 736 1 961+
فاكس: 071 736 1 961+
ص.ب.: 11/3434
الزيدانية، بناية كريدية – بيروت، لبنان
infos@asala-publishers.com

حكاية زينة

الطَّلاق

تأليف

د. سناء علي الحركه

رسم

فؤاد مزهر

أقرأ بقلبي



كانتِ المرَّةَ الأولى الّتي أسمعُ فيها جدَّتي تصرخُ لتقولَ : «طلاق ؟!» . قالَتْ هذه الكلمةَ وكأنَّها أرادَتْ للأرضِ والسَّماءِ والكائناتِ والجمادِ أن تسمعَ وتشهدَ المصيبةَ الَّتي وقَعَتْ على رأسِها .

«طلاق ؟!» . قالَتْ هذه الكلمةَ وزادَتْ يَقيني يقينًا في اللَّحظةِ الّتي كنتُ أودُّ أن أهربَ فيها من الحقيقةِ . ولكن ، إلى أين الهروب ؟ أمّي وأبي قرَّرا الطَّلاقَ . هذه هي الحقيقةُ الَّتي صارَتْ أمامي كائنًا حيًّا يَتنفَّسُ ويَتحرَّكُ، وما عليَّ إلاَّ أن أتقبَّلَهُ ، وأتعاطى معه .

غادرَتْ جدَّتي البيتَ من دون أن تُودِّعَني . في كلِّ مرَّةٍ كانتْ تَحضُنُني قبلَ أن تُغادرَ ، وتَهمِسُ في أذني جملتَها الأحبَّ إلى قلبي ، قبل أن تَمضيَ في طريقِها . هي المرَّةُ الأولى الَّتي تزورُنا جدَّتي وتُغادرُ من دون أن تَحضُنَني ، وتَهمسَ في أذني الجملةَ الَّتي لطالَما كنتُ أُحبُّ أن تُسْمِعَني إيَّاها .

دخلْتُ إلى الغرفةِ الَّتي كانت أمّي تَجلسُ فيها مع جدَّتي . هذه الغرفةُ الَّتي ما عدْتُ أعرفُ غرفةَ مَنْ هي . فإذا دخلَتْها أمّي خرجَ منها أبي. وإذا دخلَها أبي خرجَتْ منها أمّي . كانتْ غرفَتَهما ، فصارت غرفةً لأحدِهما . كانا يتقاسَمانِها ، فصارَتْ شاهدةً على انقسامِهما . مَنْ قالَ إنَّ الأماكنَ لا تشهدُ على الأحداثِ ؟ إنَّها خيرُ شاهدٍ عليها .

كثيرًا ما كنتُ أُحبُّ دخولَ غرفةِ والديَّ في صغري ، فقد كانتْ أكبرَ غرفِ البيتِ وأجملَها لأنَّ أمّي تَحرِصُ على أن تُخبِّئَ فيها من لمساتِها الرَّقيقةِ لمسةً أو أكثر. ولا يُعقلُ أن أدخلَ الغرفةَ إلاَّ ويُطالِعُني فيها شيءٌ جميلٌ وجديدٌ . وأعترفُ أنَّني في أوقاتٍ كثيرةٍ ما كنتُ أعرفُ ما

هو هذا الجديدُ، أو ما الَّذي أضفى هذا الجوَّ الجميلَ ، فقد كان يكفي أن تُغيِّرَ أمِّي مواقعَ أشياءَ صغيرةٍ ، أو تستبدلَها بأخرى حتَّى أشعرَ أنَّني مأخوذةٌ إلى عالمٍ من ألوانٍ متناسقةٍ ، ومفارشَ ناعمةٍ ، وعطورٍ أجملُها عطرُ النَّظافةِ. هذا ما كانت أمِّي تُعيدُهُ على مسامعي عندما أسألُها عن سرِّ جمالِ غرفتِهما وتـميُّزِها. «حافظي على نظافةِ الأمكنةِ لتحفظي جمالَها»، جملةٌ ما انفكَّت تكرِّرُها ، وكم كنتُ أخجلُ من أن أقولَ لها إنَّ غرفتَهما هي الأجمل، على الرُّغم من حرصِها على نظافةِ كلِّ غرفِ البيتِ.



الفصل الثَّاني: جميلة والوحش

لأوَّل مرَّةٍ رأيْتُ الغرفةَ قبيحةً ، قبيحةً جدًّا . كأنَّ غبارَ الحديث الَّذي دارَ بين أمِّي وجدَّتي ملأَ جوَّ الغرفةِ، وقطعَ عنها الهواءَ . شعرْتُ بأنَّني أكادُ أختنقُ. كانت أمِّي تَـجلسُ على طرفِ السَّريرِ، بلا حراكٍ. تركْتُها وخرجْتُ بحثًا عن هواءٍ نقيٍّ أتنشَّقُه ، فيعيدُ إليَّ الحياةَ . دخلْتُ إلى غرفةِ الجلوسِ أبحثُ عن أبي ، فطالَعَتْني صورةُ زفافِهما المعلَّقةُ على الجدارِ .لِمَ اسْتوقفَتْني هذه الصَّورةُ وكأنَّني أراها للمرَّةِ الأولى ؟ هي هناك من قبل أن أُولدَ ، وصرْتُ ، لكثرةِ ما أراها ، كأنَّني لا أراها . ولكنَّها الآن تُناديني ، اقتربْتُ منها ، وتأمَّلْتُها .



بَدَتْ أمّي في ثوبِ زفافِها أميرةً من هؤلاءِ الأميراتِ اللّواتي قرأْتُ عنهنَّ في قصصِ الأولادِ. بدَتْ، بثوبِها وتسريحةِ شعرِها، كسندريلا والأميرة النّائمة ورابنْزل وجميلة في قصّةِ «جميلة والوحش». هذه القصّةُ الّتي لطالما أثارَت حيْرتي في صِغري، فقد كنتُ أخافُ الوحوشَ المرسومةَ على صفحاتِ بعضِ القصصِ، أو الّتي تُطالعُني في بعضِ البرامجِ التّلفزيونيّةِ، ولكنَّ هذا الوحشَ بالتّحديدِ لم يكن يُثيرُ خوفي، بل على العكسِ تـمامًا، كان يُشعرُني بكثيرٍ من الاطمئنانِ إذْ أنظرُ إلى عينيْه وتعابيرِ وجهِهِ. وعلى الرّغمِ من هذا الشّعورِ لَمْ أجدْ جوابًا عن السّؤالِ الّذي ما انفكَّ يخطرُ لي: لو كنتُ أنا «جميلة» ، هل كنتُ سأقبلُ الزّواجَ بوحشٍ ؟

وفي صورةِ عرسِهما بدا أبي أيضًا وسيمًا كالأميرِ الّذي أحبَّ «سندريلا» وبَحثَ عنها طويلاً بعدما هربَتْ منه عندما تَـجاوزَتِ الساعةُ منتصفَ اللّيلِ. أو ربّـما بدا كالأميرِ الّذي قبّلَ «الأميرة النائمة» لتستفيقَ من نومِها، أو الأميرِ الّذي تسلّقَ شعرَ «رابنْزل» ليصلَ إليها في أعلى البرجِ. لا أدري حقًّا أيَّ الأمراءِ يُشبهُ ، ولكنّهُ حتمًا لا يُشبهُ الوحشَ الّذي تـحوّلَ إلى أميرٍ وسيمٍ بعدما قَبلَتْ «جميلة» الزّواجَ به . بلى يُشبهُهُ، فهو مثلُهُ، يَحملُ قلبَ ملاكٍ. أمّي قالَتْ لي يومًا إنَّ هذا الوحشَ يَحملُ قلبَ ملاكٍ. كيف لم تلحظْ هذا الشّبه بينَه وبين أبي ؟ لو فعلَتْ، لغفرَتْ

له أخطاءَهُ، وما فكّرَتْ بالانفصالِ عنه أبدًا.

قصّةُ «جميلة والوحش» أسرَتْ تفكيري في تلك اللّحظةِ ، فأسرعْتُ إلى غرفتي ، وبَحثْتُ عنها .لم يكن سهلاً عليَّ أن أجدَها ، لكنّني وجدْتُها أخيرًا. نفضْتُ عنها الغبارَ ، وقلّبْتُ صفحاتِها ، وكأنّني أُقلّبُ أيّامًا ماضيةً. واسْتَعَدْتُ ذلك اليومَ الّذي طَرَحْتُ على أمّي سؤالاً من أسئلةٍ كثيرةٍ أثارَتْ حيرتي: «كيف لفتاةٍ جميلةٍ أن تقبلَ الزّواجَ بوحشٍ قبيحٍ ؟».





ضحكَتْ وقالتْ: «إنَّهُ على صورةِ وحشٍ، ولكنَّه يَحملُ قلبَ ملاكٍ. لا تَـحكمي على ظواهرِ الأمورِ، ابْحثي دائمًا عن بواطنِها».

قالَتْ جملَتَها ومشتْ، وشعرْتُ أنَّها لا تريدُ أن تَتحدَّثَ معي عن الحبِّ والزَّواجِ، فاحتفظْتُ بسؤالٍ آخرَ كنتُ أودُّ أن أعرفَ له جوابًا، إلى أن جاءَ ذلك اليوم الَّذي سألَني أبي أن أُحضرَ القصَّةَ الأحبَّ إلى قلبي لنتشاركَ في قراءَتِها، فقلْتُ في نفسي ها قد جاءتِ الفرصةُ الَّتي أنتظرُها. أسرعْتُ وأحضرْتُ قصَّةَ «جميلة والوحش»، وعندما رآها ضحك وقالَ: «ألَمْ تَـحفظي بعدُ هذه القصَّة؟». تَجاهلْتُ ما قالَهُ، وفتحْتُ الصَّفحة الأولى، ورحْتُ أقرأُ وأنا أنظرُ إلى صورةِ «جميلة»، هذه الشَّخصيَّة الَّتي كثيرًا ما كنتُ أضعُ نفسي مكانَها، في محاولةٍ منِّي لأعرفَ كيف تُفكِّرُ

وكيف تشعرُ، وأبدًا ما كنتُ أعرفُ. وعندما أنْهيْنا قراءةَ القصَّة سألْتُ أبي من دون أن أنظرَ إلى عيْنيْه: «لو لَم يَتحوَّلِ الوحشُ إلى أميرٍ فهل كانا سيعيشان سعيدَيْن؟». صمتَ أبي وقتًا قبل أن يقولَ: «غريب، لَمْ يَخطرْ على بالي هذا السّؤالُ. أعتقدُ أنَّ «جميلة» أحبَّتِ الوحشَ كما هو، ورضيَتْ ببشاعةِ شكلِهِ الخارجيِّ، وفرِحَتْ بِحُسْنِ معاملَتِهِ لها، وطيبةِ قلبه معها، فقبِلَتْ به زوجًا. في الحياةِ، علَيْنا ألاّ نشترطَ على الآخرينَ كيف يَجبُ أن يكونوا كي نقبلَ بِهم. يَجبُ أن نقبلَ بِهم كما هم، كي نعيشَ سعداءَ».

الفصل الثَّالث: آثارٌ في الذَّاكرة

يَخطرُ لي أن أُذكِّرَ أبي بِما قالَهُ لي عن السَّعادةِ علَّهُ يتنبَّهُ إلى ضرورةِ أن يقبلَ بأمِّي كما هي من دون أن يُحاولَ تغييرَ تصرُّفاتِها أو طباعِها كي يعيشا سعيدَيْن. كما يَخطرُ لي أن أُذكِّرَ أمِّي بضرورةِ ألاَّ تحكمَ على ظواهرِ الأمورِ، بل أن تبحثَ عمَّا وراءَها علَّها تتنبَّهُ إلى أنَّ لأبي قلبَ ملاك، يستحقُّ أن تُسامحَ لأجلِهِ كلَّ الأخطاءِ ، وحتَّى الخطايا.



قصَّةُ «جميلة والوحش» لا تزالُ تأسرُ تفكيري، فتعيدُني إلى الوراءِ سنوات، وتُذكِّرُني بأحداثٍ اعتقدْتُ أنَّني نسيتُها على مرِّ الأيَّامِ.

فقد كانت هذه القصّةُ ضمن مجموعةِ قصصٍ اختارَها لي والدي بِمناسبةِ نجاحي في السَّنةِ الابتدائيّةِ الثَّالثة. أذكرُ يومَها أنَّني فرحْتُ كثيرًا بها، ولكنَّ أمِّي غضِبَتْ غضبًا شديدًا .

عندما تَغضبُ أمِّي يَعلو صوتُها، وتقسو ملامحُ وجْهِها، وتصيرُ كأنَّها لا تملكُ القدرةَ على الثَّباتِ في مكانٍ. فتقفُ تارةً، وتجلسُ تارةً أخرى. تروحُ وتجيءُ، فتبدو وكأنَّها تدورُ حولَ نفسِها. ولكنّها ما تلبث أن تَهدأَ وكأنَّ شيئًا لم يكن. ولكنَّ المشكلةَ أنَّها كثيرًا ما كانتْ تَغضبُ، حتَّى لو لم يكنِ الأمرُ يستدعي الغضبَ.

أبي قلَّما يغضبُ، ولكنَّهُ، إذا غضبَ، فغضبُهُ شبيهٌ بغضبِ الطَّبيعةِ، هكذا كانت أمِّي تقولُ، وما كنتُ أفهمُ لِمَ تغضبُ أمِّي؟ ولِمَ يغضبُ أبي؟ ولِمَ تغضبُ الطَّبيعةُ؟



في ذلك اليوم سمعْتُ أمِّي تقولُ لأبي إنَّه انتقى مجموعةَ الكتبِ الَّتي أهداني إيَّاها تمامًا كما ينتقي الفاكهةَ والخضرَ، من دون أن يتأكّد من جودتِها. وأخذَ الموضوعُ بينهما الكثيرَ من الجدلِ، ثمَّ انتقلا من موضوعٍ إلى آخرَ قبل أن ينتهيَ بصراخ، تلاهُ صمتٌ استمرَّ أيّامًا طويلةً ،تمامًا كما تنتهي كلُّ مواضيعِ الحديثِ بينهما .

توالتِ الأيَّامُ، وبقيَتْ مجموعةُ القصصِ لا لِتُذكِّرَني بخلافاتِهما، لأنَّهما لم يسمحا لي بنسيانِها لكثرةِ ما كانت تتكرَّر تاركةً آثارَها في حياتي، كما في ذاكرتي. بقيَتْ مجموعةُ القصص لأنَّها كانت أجملَ هديَّةٍ في أجملِ يومٍ : يوم نجاحي، النَّجاحِ الَّذي تَحوَّلَ إلى فشلٍ عندما بدأت علاماتي بالتَّراجع عامًا بعد عامٍ مع تنامي الخلافاتِ بين أمّي وأبي، وبصعوبةٍ بالغةٍ كنتُ أنتقلُ من صفّ إلى صفّ .



الفصل الرَّابع: صوتُ الضَّمير

قصةُ «جميلة والوحش» لا تُريدُ أن تترُكَني في حاضري . وبقايا القهوةِ على صفحةٍ من صفحاتِها تأبى إلاَّ أن تعودَ بي سنواتٍ إلى الوراء. أذكرُ جيّدًا أنّني في السَّنة الابتدائيَّةِ الرَّابعةِ ، ولسبَبٍ ما كنتُ أجْهَلُهُ في حينِها، لجأْتُ إلى الكذبِ لأُنقذَ نفسي من عقابٍ كان بانتظاري إذا علِمَ والداي بتراجع علاماتي المدرسيَّةِ. لذلك كنتُ أُبرِّرُ عدم توقيعي لأوراقِ الامتحاناتِ بالقَولِ إنَّ أمّي مريضةٌ، وأبي مشغولٌ بِها، يُرافِقُها من طبيبٍ إلى آخرَ، ويبقى إلى جوارِها في الوقتِ الَّذي لا تستطيعُ فيه هي أن تُغادرَ الفراشَ. وكم كنتُ آسفُ عندما تُصدِّقُني المعلِّمةُ ، وتدعو لأمّي بالشّفاءِ،



ولأبي بالصَّبرِ، وتوصيني أن أهتمَّ بدروسي ، وأُحسنَ التَّصرُّفَ. والحقيقةُ أنَّ ادِّعاءاتي في تلك الفترةِ كانت كالتَّمنِّياتِ ، إذْ كثيرًا ما كنتُ أتـمنَّى أن أرى أبي إلى جوارِ أمِّي ولو في زيارة عائليَّةٍ ، الأمرُ الَّذي ما كنتُ أراه.

لقد قادَتْني تلك الكذبةُ الأمنيةُ إلى سلسلةٍ من الكذبِ، أنا المعروفةَ بصدقي وحُسْنِ أخلاقي . فقد أَدْخَلْتُ أمِّي، بكذبةٍ منِّي، إلى المستشفى، وأخْضَعْتُها لعمليَّةٍ جراحيَّةٍ ، قادَتْها إلى غيبوبةٍ كانتِ السَّببَ في أن ترأفَ بي المعلِّماتُ، ويَتساهلْنَ في تقييمي ليتمَّ ترفيعي إلى السَّنةِ التَّالية. وعندما ذهبْتُ في نهايةِ العامِ، برفقةِ والدتي طبعًا، لاستلامِ النَّتائجِ،



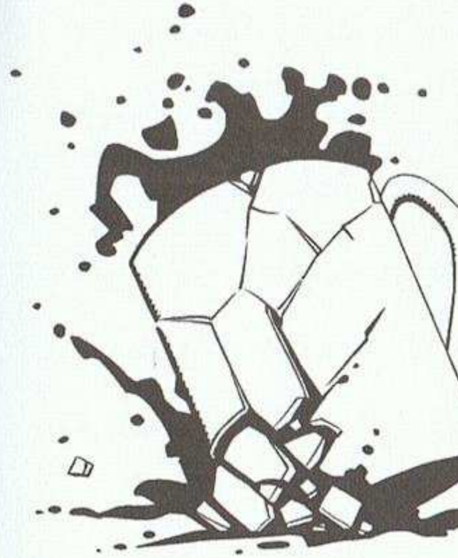
اقتربَتْ منها المعلِّماتُ، واحدةً تلو الأخرى، وحضنَّها وقبَّلْنَها وهنَّأْنَها بالسَّلامةِ. المسكينةُ، ظنَّتْ أنَّ الوجوهَ اختلطَتْ على المعلِّماتِ، فاعتقدْنَ أنَّها امرأةٌ أخرى. كان واضحًا من طريقةِ استقبالهنَّ لها، أنَّهنَّ يستقبلْن امرأةً عائدةً من الموتِ. فبقيَتْ جامدةً في مكانِها من دون حراكٍ، في الوقتِ الَّذي خطرَ لبعضِهنَّ أنَّها لم تتعافَ بعدُ تـمامًا، فحاولْنَ إجلاسَها، وتقديمَ كوبٍ من الماءِ لها في محاولةٍ لإظهارِ تعاطفهنَّ معها، وتفهّمهنَّ لظروفها الصِّحيّةِ الصَّعبةِ.

ولسوءِ حظِّي دخلَتْ في تلك اللّحظةِ المديرةُ الّتي ما إن رأتْ أمّي جالسةً في ذهولٍ، والمعلّماتُ حولَها في حيرةٍ، حتّى اقترَبَتْ منها ولامَتْها على خروجِها من المَنْزلِ وهي في تلك الحالةِ. وعندما حاولَتْ أمِّي أن تقولَ شيئًا سارَعْتُ إلى الإمساكِ بيدِها، لإنْهاضِها عن كرسيِّها، والخروجِ بِها من الغرفة، وذلك بعدما رسمْتُ على وجهي نظراتِ الفتاةِ الحزينةِ بسببِ حالةِ أمِّها الَّتي تستدعي الرِّثاءَ .

أخيرًا خرجْنا ، أنا وأمِّي من المدرسةِ، هي في حالةِ استغرابٍ شديدٍ للطَّريقةِ الَّتي اسْتُقْبِلَتْ بها وعومِلَتْ، وأنا في حالةٍ من فرحٍ وحزنٍ شديدَيْنِ والسَّببُ واحدٌ: مسلسلُ الكذبِ الَّذي أحسنْتُ كتابَتَهُ وتـمثيلَهُ وإخراجَهُ وعرضَهُ أمامَ الملأ نالَ شهادةَ نـجاحٍ ورُفِّعْتُ بسببِهِ إلى السَّنةِ التَّالية .

هل يُعقلُ أن نفرحَ ونَحزنَ للسَّببِ نفسِهِ ؟ هذا ما حدثَ معي بالفعلِ. فقد فرحْتُ لأنَّ أحدًا لم يعرفْ أنّني كذبْتُ . وحزنْتُ لأنَّ أحدًا لم يعرفْ أنّني كذبْتُ، وأعرفُ أنا. لقد أحسنْتُ تقديمَ مسلسلِ الكذبِ، لكنَّني أبدًا لم أُحْسِنْ إسكاتَ هذا الصَّوتِ الَّذي كان يصرخُ بي أنَّني كاذبةٌ، وأنَّني فاشلةٌ لا أستحقُّ النّجاحَ : إنَّه صوتُ الضَّميرِ .

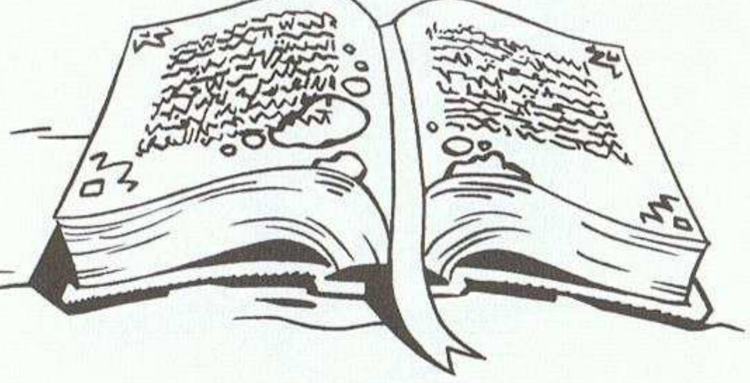
الخطرُ الَّذي نَجوْتُ منه في المدرسةِ علقْتُ في شَرَكِهِ في البيتِ، إذْ عندما عَلِمَ أبي ما حصلَ راحَ يُوبِّخُ أمِّي لأنَّها أهمَلَتْني طوالَ العامِ ، وهو ما كان يَلْحَظُهُ بصمتٍ. والدَّليلُ على إهمالِها لي أنَّها لم تزرِ المدرسةَ لمقابلةِ معلِّماتي، والاستفسارِ عن مستوى تحصيلي ، وبالتَّالي فقد نسيْنَ وجْهَها واعتقدْنَ أنّها امرأةٌ أخرى سمعْنَ عن تدهورِ وضعها الصِّحيّ، وفجأةً ظهرَتْ أمامهنَّ ، لذا كان من الطَّبيعيِّ أن يتصرَّفْنَ بهذا الشَّكلِ .



طبعًا لَمْ تسكتْ أمِّي عن توبيخِ أبي لها، ولومِها بسببِ انشغالِها عنِّي، وإهمالِها لشؤوني ، فاعترَضَت، ووبَّخَتْهُ بدورِها لأنَّهُ لا يعتبرُني جزءًا من مسؤوليَّاتِهِ هو، بل من مسؤوليَّاتها هي، هي وحدَها، وأنَّ مسؤوليةَ تربيتي ورعايتي، وتحضيرَ برنامجٍ ترفيهيٍّ لي

في عطلةِ نهايةِ الأسبوعِ ، وتنظيمَ أنشطةٍ رياضيّةٍ خلالَ الأسبوعِ لتُساهمَ في نمُوّي بشكلٍ صحيٍّ، كلُّها أمورٌ تقعُ على عاتِقِها هي وحدَها ، إضافةً إلى مسؤوليّةِ إدارةِ شؤونِ البيتِ، وإدارةِ شؤونِ المكتبِ الَّذي تعملُ فيه ساعاتٍ طويلةً لتجنيَ المالَ في مساهمةٍ منها لتلبيةِ حاجاتِنا كأسرةٍ.

وكالعادةِ، أخذَ الموضوعُ بينهما الكثيرَ من الجدلِ، وعلا الصُّراخُ، وانتهى عندما تناولَ أبي فنجانَ قهوةٍ كانَ بمتناولِ يدِهِ ورمى به، فحطَّت قطراتٌ من القهوةِ على صفحةٍ من صفحاتِ قصّةِ «جميلة والوحش» ، إذْ صودفَ أنَّني تركْتُها مفتوحةً على الطَّاولةِ. وليس هذا فحسب، فقد أصابَ الفنجانُ الطَّائرُ صورةَ زفافِهما المعلَّقةَ على الجدارِ وتناثَرَتْ أجزاءُ الزّجاجِ في كلِّ مكانٍ، وذلك قبل أن يلجأَ إلى صمتٍ استمرَّ أيَّامًا طويلةً ما عدْتُ أذكرُ عددَها. هذا الصمتُ الَّذي كان يُنهي كلَّ مواضيعِ الحديثِ بينهما قبل أن تبدأَ.



ومع صمتِهما يصمتُ كلُّ شيءٍ داخلي ما عدا ذلك الصّوتَ الّذي لَمْ أستطعْ إسْكاتَهُ يومًا : صوتُ الضّميرِ الّذي كثيرًا ما كان يَـمنعُني من النّوم بهناءٍ، واللّعبِ بسعادةٍ، والعيشِ بسلامٍ .

أعترفُ، وأنا أستعيدُ هذه الحادثةَ، أنّني لم أكذبْ إلاّ لألفتَ نظرَ والديَّ وأُبْعِدَهما، ولو إلى حينٍ، عن مشاكلِهما. ولكنّهما، في ذلك الوقتِ، لم ينتبها إلى أنَّ مشاكلَهما كانتْ تشغلُني عن إنجازِ واجباتي المدرسيّةِ، ما انعكسَ سلبًا على تحصيلي العلميّ، وأدّى إلى تراجع نتائجي. لقد أعمتْهما خلافاتُهما عن الشّعورِ بوجودي، واعتبرا أنّني أصغرُ من أن أنتبهَ، أو أتأثّرَ بـما يدورُ حولي. وعندما خفْتُ الفشلَ، أنا الّتي لم أعتدْ عليه، لجأتُ إلى الكذبِ الّذي أنقذَ عامي الدّراسيّ ، ولكنّهُ تسبّبَ في إطلاقِ صوتِ



ضميري الّذي ما انفكَّ يصرخُ بي ليُذكّرَني بأنّي كاذبةٌ وأنّي فاشلةٌ. وإلى اللّحظةِ يؤلـمني هذا الصّوتُ كثيرًا كثيرًا، على الرّغم من أنّني تعلّمْتُ، لكثرةِ ما شهدْتُ من أحداثٍ، أنَّ أفضلَ ما حصلَ لي حتّى اللّحظة من حياتي هو أنّني فشلْتُ في إسكاتِ صوتِ الضّميرِ الّذي كثيرًا ما كان الدّافعَ لأعودَ إلى الطّريقِ الصّحيحِ .

الفصل الخامس: أسئلةٌ من دون أجوبة

تركْتُ قصَّةَ «جميلة والوحش» ورائي، وخرجْتُ من غرفتي، في محاولةٍ منِّي للهروبِ من ذكرياتِ الماضي. هذه الذّكرياتُ الَّتي ما إنْ قلَّبْتُ صفحاتِ القصَّةِ ، حتَّى فرَّتْ من بين سطورِها، وأيقظَ وقْعُ أقدامِها المتلاحقةِ كلَّ ما كان غافيًا في أعماقي من أوجاعِ تلك الأيَّامِ.



في غرفةِ الجلوسِ، طالَعَتْني، من جديدٍ، صورةُ زفافِهما المعلَّقةُ على الجدارِ. جزءٌ من الزّجاجِ الَّذي يَحمي الصّورةَ من غبارِ الأيَّامِ ما يزالُ مكسورًا منذ تلك الحادثةِ الَّتي مرَّت عليها السّنواتُ. منذ قليلٍ، نظرْتُ إلى الصّورةِ،

ولم أنتبهْ أنَّ زجاجَها مكسورٌ. وعندما استعدْتُ تفاصيلَ الحادثةِ وجدْتُ نفسي لا أرى فيها أمِّي ولا أبي، أنا فقط أرى الزّجاجَ المكسورَ .

لِمَ لَمْ يَخطرْ لهما أن يستبدلا زجاجَها المكسورَ بآخرَ ؟ لَمْ أسألْ نفسي هذا السّؤالَ من قبل. وما حاجتي لأن أسألَهُ اليوم، والجوابُ بات حقيقةً أمامي: أحيانًا يصعبُ علينا ان نُصلحَ ما انكسر.

ترى هل انكسرَت صورةُ أبي في عيني أمِّي وتساقطَتْ أجزاءً نتيجةَ عنفِ أبي الَّذي كثيرًا ما سمعْتُ أمِّي تشكو منه همسًا في بعضِ الأحيانِ، وبصوتٍ مرتفعٍ في أحيانٍ أكثر ؟

وهل انكسرَتْ صورةُ أمِّي في عيني أبي وتساقطَتْ أجزاءً نتيجةَ عصبيَّتِها الَّتي كان أبي يشكو منها همسًا في بعضِ الأحيانِ، وبصوتٍ مرتفعٍ في أحيانٍ أكثر ؟

لماذا تَحكمُ أمِّي على ما تراهُ من عنفٍ في ردَّاتِ فعلِ أبي، ولا تَبحثُ عن الأسبابِ الَّتي تدفَعُهُ إلى التَّصرّفِ بهذا العنفِ ؟ أليسَتْ هي مَنْ نصحَتْني ذات يومٍ ألاَّ أحكمَ على ظواهرِ الأمورِ، بل أن أبْحثَ عن بواطِنِها ؟

هل يُعقلُ أن تكونَ «جميلة» قادرةً على أن ترى في الإنسانِ الوحشِ ما يدفَعُها لتُحبَّهُ وتَقبلَ به زوجًا، ولا تَجدُ أمِّي في أبي ما يَدفعُها على البقاءِ معه ؟ طبعًا لا، ولكنَّ الفرقَ أنَّ «جميلة» بَحثت ووجدت ما



تُحبُّه ، أمَّا أمِّي فأعتقدُ أنَّها لم تبذلِ الجهدَ المطلوب .

ولماذا يشترطُ أبي على أمِّي أن تكون أكثرَ هدوءًا، وأقلَّ عصبيَّةً، كي يعيشَ معها، وهو الَّذي قالَ لي ذاتَ يومٍ إنَّ علينا أن نقبلَ الَّذين نُحبُّهم كما هم كي نعيشَ سعداء ؟

هل يعقلُ أن يكونَ الحبُّ الَّذي حملَهُ أبي لأمِّي قد تحوَّلَ إلى كرهٍ أو نفورٍ مع مرورِ الأيَّامِ، وكثرةِ الخلافاتِ بينهما ؟ طبعًا لا، إذْ لا يُعقلُ، لأيِّ سببٍ من الأسبابِ، أن يَتحوَّلَ الحبُّ إلى كرهٍ، والوفاقُ إلى خصامٍ، هل يُعقلُ ؟

أسئلةٌ كثيرةٌ لا أجدُ لها أجوبةً، وحقيقةٌ واحدةٌ صرْتُ على يقينٍ منها: أبي وأمِّي قرَّرا الطَّلاقَ ؟ هل حقًّا فاجأني القرارُ؟ ألم أكن أشعرُ أنَّهُ سيحصلُ ذات يومٍ؟

الفصل السَّادس: في دائرةِ الخطر

أذكرُ أنَّني سمعْتُهما منذ سنواتٍ يتحدَّثان عن الطَّلاق . كان ذلك بعدما كادت حادثةٌ تُنهي حياتي في حفلةِ عيدِ ميلادي . تلك الحفلةُ الَّتي أقمناها في مسبحٍ، سمعَتْ أمِّي أنَّ إدارتَهُ تُنظِّمُ حفلاتِ أعيادِ الميلادِ للرَّاغبين. اعترض أبي بشدَّةٍ على الفكرةِ ، ولكنَّ أمِّي أصرَّتْ بشدَّةٍ أكبرَ وذلك بعدما أظهرْتُ حماسةً للفكرةِ، ورغبةً في أن تكونَ ذكرى عيد ميلادي العاشر مميَّزةً. ولقد حاولَ أبي كثيرًا أن يُقنعَني باختيارِ مكانٍ أقيمُ فيه الحفلةَ يكونُ أكثرَ أمانًا من حوضِ سباحةٍ، إذْ لم يكن مقتنعًا أنَّ إدارةَ المسبحِ قادرةٌ على ضبطِ حركةِ أكثرَ من ثلاثينَ ولدًا سيركضون ويقفزون ويسبحون. فإذا تعرَّضَ أيٌّ منهم لسوءٍ سيشعرُ بأنَّهُ المسؤولُ.

سقطَتْ محاولاتُ أبي أمامَ إصرارِنا، أنا وأمِّي. وتمَّ تحديدُ الموعدِ، وتوزيعُ بطاقاتِ الدَّعوةِ، والتَّحضيرُ لليومِ المنتظرِ.

مضى كلُّ شيءٍ كما كان مرسومًا له أن يمضي. فقد حضرَ أصدقائي، وسبحنا وشاركْنا في جميعِ الألعابِ المائيَّةِ الَّتي حضَّرَها المنظِّمون، تحت إشراف مسؤولي السَّلامة. وفي الوقتِ المحدَّدِ، غادرْنا بركةَ السِّباحةِ المخصَّصةَ لأعمارِنا، وأطفأْنا الشُّموعَ وغنَّيْنا ورقصْنا وأكلْنا في جوٍّ من الفرحِ والضَّحك .



كان الكلُّ مشغولاً بشيءٍ ما، عندما خطرَ لي أن أفاجئَ أصدقائي وأستعرضَ مهاراتي في القفزِ والغطسِ في بركةٍ مخصّصةٍ للبالغين، يُمنعُ على الأولادِ الغوصُ فيها. أسْرَعْتُ الخطى باتّجاهِها قبل أن ينتبهَ أحدٌ لِما أنوي القيامَ به. ولسوءِ حظّي زلّتْ قدمي، وأثناءَ سقوطي ارتطمَ رأسي بحافةِ البركةِ، فهويْتُ فيها بعدما غبت عن الوعي، وكدْتُ أغرقُ لو لم تنتبه سيّدةٌ كانت تستلقي تحت أشعّةِ الشّمسِ بعيدًا عن ضجيجِنا، فنهضَتْ مسرعةً تستغيثُ. عندها تنبّه أبي إلى أنَّ خطرًا ما يُهدّدُ أحدَ الأولادِ، فأسرعَ، مع المسرعين، ليدركَ أنّني أنا مَن كان في دائرةِ الخطرِ.

أمضيْتُ اللّيلةَ في المستشفى تحت المراقبةِ بعدما تمَّ إسعافي بأعجوبةٍ. وانتظر أبي عودتي سالمةً إلى البيتِ ليفجّرَ غضبًا كتمَهُ من شدّةِ خوفِه عليَّ، من جهة، وضيقِهِ من عنادِ أمّي وتشبّثِها برأيها، من جهةٍ ثانية.

« كان يُمكنُ أن تَموتَ بسببِ عنادِك وإهمالِك»، جملةٌ راحَ أبي يُكرّرُها وهو يصرخُ، في وقتٍ كانت أمّي تستعدُّ فيه للرّدِّ لولا أنّني أمسكْتُ بيدِها ورجوتُها بنظرةٍ من عيني أن تصمتَ. كنتُ متعبةً وحزينةً في آنٍ لأنّني سببُ الكثيرِ من مشاكلِهما، أو هكذا خُيِّلَ إليَّ في وقتٍ لم يتوقّفْ فيه أبي عن الصّراخ .

« كان يُمكنُ أن تَموتَ بسببِ عنادِك وإهمالِك ، ماذا يُفيدُني البيتُ لو خسرْتُها ؟ ما معنى حياتي من دونِها ؟ كيف كان يُمكنُ أن نعيشَ مع بعضِنا لو لَم نتمكّن مِن إنقاذِها في اللّحظةِ الأخيرة ؟ ». جُمَلٌ راحَ أبي يتلفّظُ بها. رأيتُها تتطايرُ من فمِه ، بل من قلبِه ، وتتداخلُ بالهواءِ



الَّذي كنَّا نتنشّقهُ. ورأيْتُ في جملِه خوفَهُ عليَّ ، وخوفَهُ على علاقَتِهِ بأمِّي، وخوفَهُ على بيتِنا كأسرةٍ لا كموقع وأثاثٍ. رأيْتُ ما لم ترَهُ أمِّي، لأنَّها انتظرَتْ كي يصمتَ وقالَتْ كلمةً كادتْ تتسبَّبُ بانْهيارِ البيتِ فوق رؤوسنا : «طلِّقْني». كلمةٌ واحدةٌ قالَتْها أمِّي، وشعرْتُ لحظتَها أنَّنا جميعًا بِتْنا في دائرةِ الخطر، فمن سيُنقذُنا ؟ كلمةٌ واحدةٌ قالَتْها أمِّي ، وتَحوَّلَ أبي عندما سمعَها إلى جمادٍ، كما تَحوَّلَ اليوم .

ها هو هناك، يَجلسُ في مكانه على الشّرفةِ بلا حراكٍ . ينظرُ إلى السَّماءِ ويُحدِّثُ غيومَها العابرةَ. نظرْتُ جيِّدًا إلى وجْههِ الَّذي تَحكي تقاسيمُهُ، وتُخبرُ بما لا يُريدُ أن يُخبرَهُ. نظرْتُ جيِّدًا إليه. لم يتغيَّرْ، أبي لم يزلْ أبي. لا أعتقدُ أنّه كان وحشًا في ما مضى ، وحتمًا لم يَتحوَّلْ إلى وحشٍ مع مرورِ الأيَّام.



اقتربْتُ منه وأخبرْتُهُ أنَّني سمعْتُ الحوارَ الَّذي دارَ بين أمِّي وجدَّتي عن طلاقِهما. نظرَ إليَّ وقالَ : « أريدُكِ أن تعرفي شيئًا واحدًا فقط هو أنَّني أحبُّكِ كثيرًا، وأحبُّ أمَّكِ أكثر ».

ـــ هل أنا السَّبب ؟

ـــ أبدًا ، أبدًا. لطالما كنتِ سببَ سعادَتِنا الوحيدَ. ولطالما فشلْنا في إسعادكِ. اسمعي يا «زينة» ما أريدُكِ أن تعرفيه جيِّدًا ، وتكوني على ثقةٍ تامَّةٍ به أن لا ذنبَ لكِ بفشلِ علاقتي بوالدَتكِ. كانت أحلامُنا كبيرةً، كبيرةً جدًّا، وكانت إمكانيَّاتُنا الماديَّةُ لتحقيقِ تلك الأحلامِ ضعيفةً ، ضعيفةً جدًّا. فنحن، إلى يومِنا هذا لَمْ نستطعْ أن نُسدِّدَ ثَمنَ المنْزلِ الَّذي نسكُنُهُ، ولا السَّيارةِ الَّتي نقودُها. ولن نستطيعَ يومًا أن ننتقلَ إلى بيتٍ جبليٍّ لنقضي العطلةَ الصَّيفيَّةَ، ولا أن نَحجزَ لنا مقعديْن على طائرةٍ تنقلُنا لقضاءِ عطلةٍ على الرُّغم من أنَّنا نعملُ لساعاتٍ طويلةٍ ، طويلةٍ جدًّا. ما عدْنا نَجدُ وقتًا لنجلسَ معًا كحبيبيْن، ونتحدَّثَ كشريكيْنِ، ونتقاسمَ الفرحَ والحزنَ كزوجيْن . عندما نعودُ ، أنا وأمّكِ، بعد يومِ عملٍ طويلٍ ومُتْعِبٍ ، نكونُ قد فقدْنا القدرةَ على التَّواصلِ مع بعضِنا، وعلى استيعابِ أحداثِ يوميَّاتِنا العائليَّةِ ، فنثورُ لأتفهِ الأسبابِ، ونُحوِّلُ تعبَنا إلى كراتِ نارٍ نرميها في كلِّ اتّجاه فتُحيلُ عالَمنا الصَّغيرَ إلى رماد. أبدًا ، أبدًا لم تكوني يومًا السَّببَ، لطالما كنتِ أولى الضَّحايا .

الفصل السَّابع: الطَّلاق خطأ أو تصحيح خطأ

لَم يكن أبي قادرًا على متابعةِ الحديثِ معي. فقد غَرِقَ في صمتِه بعدما أكَّدَ لي ما كنتُ أريدُ أن أتأكَّدَ منه وهو أنَّني لم أكن سببَ الخلافِ بينهما. وقد احترمْتُ رغبتَهُ في عدم الكلامِ، ولكنَّني كنتُ أشعرُ بضيقٍ شديد وحاجةٍ إلى الكلام، لذا استأذنْتُهُ، وقصدْتُ « هبة». هي صديقةٌ لي تكبُرُني بأعوام، وتسكنُ ، مع والدَتِها، في الشِّقَّةِ المقابلةِ لشقَّتِنا. عاشَتْ «هبة» التَّجربةَ نفسَها عندما وقعَ الطَّلاقُ بين أمِّها وأبيها ، قالَتْ لي : «في البدايةِ لم يكنِ الأمرُ سهلاً. شعرْتُ أنَّ قلبي يَنقسمُ إلى قسمينِ، وكلُّ قسمٍ يَتَّجِهُ عكسَ الآخرِ، إلى الأمامِ. وحدي كنتُ واقفةً أتّجِهُ إلى الوراءِ.



إلى تلكَ الأيَّامِ الَّتي كنَّا نُمثِّلُ فيها عائلةً صغيرةً، ولكنَّها جميلةٌ. عائلةٌ كلُّ ما بقيَ منها الآنَ صورةٌ في إطارٍ، أُخبِّئُها على رفٍّ من رفوفِ خزانتي، تَحت ملابسي، وكأنَّني أخاف أن يراها أحدٌ فأُعاقَبَ على ذنبٍ لم أسْتَطِعْ إلاَّ أن أقْتَرِفَهُ. ذنبي أنَّني إلى اللَّحظةِ أتمنَّى أن نعودَ عائلةً صغيرةً، ولكنَّها جميلةٌ، وتُلْتَقَطَ لنا صورةٌ أَضَعُها في إطارٍ، ولا أخشى من أن تتصدَّرَ غرفَ البيتِ، ويراها كلُّ زائرٍ وجارٍ وصديقٍ وحبيبٍ.

نعم، في البدايةِ لم يَكنِ الأمرُ سهلاً. شعرْتُ أنَّ حياتي قسمينْ، وأنَّ عليَّ أن أنسى «الما قبل» ، وأعيشَ «الما بعد». هذا ما طَلَبَتْهُ منِّي أمِّي. وهذا ما أكَّدَ عليه أبي ، لكنَّ أحدًا منهما لم يُخبِرْني كيف أنسى؟ هل ثَمَّةَ ممحاةٌ يُمكنُ أن تَمحوَ لنا ذكرياتنا ؟ وإذا كان ثَمَّةَ ممحاةٌ فمِن أين نَشتريها؟ وإذا كان ثَمَّةَ ممحاةٌ ، فلماذا يُعاني مَنْ يُعاني وجعَ الذِّكرياتِ؟».

صَمَتَتْ «هبة» ، ليس لأنَّها قالَتْ كلَّ ما أرادَتْ قولَهُ. صَمَتَتْ لأنَّها عجزَتْ عن أن تُكملَ ما بدأَتْ بقولِه. دموعُها الَّتي لم تَسْمَحْ لَها بأن تَسيلَ على خدَّيْها ، كأنَّها سالَتْ على كلماتِها فأغْرَقَتْها بالصَّمتِ. شعورُها بالخيبةِ كأنَّهُ وقفَ حاجزًا في وجهِ تسلسلِ أفكارِها، وتَلاحقِ مشاعرِها، فقادَها إلى الصَّمتِ. خفْتُ لَحظَتَها من أن أقتربَ منها وأحضنَها، على الرُّغمِ من أنَّني شعرْتُ في تلكَ اللَّحظةِ أنَّني لا أريدُ شيئًا سوى أن أحضنَها، وأعتذرَ

منها لأنّني فتحْتُ جرحًا نازفًا في أعماقِها من دون أن أقصدَ.

كانتْ كأنَّها تقرأُ أفكاري. نَهَضَتْ من مكانِها ، واقترَبَتْ منّي وحضَنَتْني بكلِّ حنانِ الأرضِ ، هي الّتي حُرِمَتْ من حنانٍ يَختبئُ في زوايا البيتِ، ويُدْفِئُ الجوَّ ، ولا ننتبهُ لأهميَّتِه إلاَّ عندما نَفتَقِدُهُ. وعندما نَفتقِدُهُ يكونُ البيتُ قد انهارَ لأنَّنا لَم نُحسنِ الإصغاءَ إلى بعضِنا بعضًا. مِن أين أتَتْ «هبة» بكلِّ هذا الحنان ؟

لا أدري كم مرَّ من الوقتِ قبل أن أتـمكَّنَ من الكلامِ. نظرْتُ إلى «هبة» وقلْتُ :

ـــ آسفة . لقد آلَـمْتُك .

ـــ لا ، لا ذنبَ لك. هناك آلامٌ نَتوهَّمُ أنّنا شَفينا منها، لنكتشفَ في لحظةٍ، كلحظةِ الصِّدقِ هذه الّتي تـجمعُنا ، أنّهُ لا يُـمكنُ أن نَشفى، أو ربّـما لا نُريدُ أن نَشفى. فالشِّفاءُ في حالةٍ كهذه، يَعني الموافقةَ على هذا الانقسام. وأنا لم أوافقْ يومًا، ولن أوافقَ. لذا سيسكنُ هذا الألَمُ أعماقي دومًا. وسببُ الألم أنَّ أحدًا منهما لم يَسْألْني رأيي، لم يَهتمَّ لوجودي الَّذي صارَ اسمًا، مجرَّدَ اسمٍ مُوزَّعٍ على روزنامةِ الشّهرِ، يَتقاسمانِه بينهما. اعتقدا خطأً أنّني أصغرُ من أن يكونَ لي رأيٌ ، لذا لم يَسْألاني رأيي. أو ربَّما خافا من أن يَسْمعا ما لا يريدانِ سماعَهُ. لقد تصرَّفا بأنانيَّةٍ ، وكنتُ أنا الضَّحيَّةَ.

ـــ أعتقدُ أنَّ حالي ليسَ أفضلَ بِكثيرٍ من حالكِ. فأنا ، وعلى الرَّغم من أنّني أشهدُ طلاقَهما، وأنا أكبَرُ مـمّا كنتِ أنتِ عليه عندما اتَّخذَ والداكِ قرارَ طلاقِهِما، فإنّهما لم يسألاني رأيي. إذًا ، لا علاقةَ للعمرِ باستشارةِ الأبناءِ. إنَّهُ على الأرجح: الخوف. يَخافانِ أن يُضعِفَهما الرَّأيُ الآخرُ، وهما يحتاجان إلى القوَّةِ ، أو دعيني أُحدِّدُ أكثر، يحتاجان إلى ادِّعاءِ القوَّةِ كي يسيرا بقرارِهما إلى الأمام من دون التفاتةٍ إلى الوراء.

ـــ ربَّـما تكونين على حقّ. ولكن، أريدُكِ أن تنظري إلى الصّورةِ من كلّ الزّوايا، وليس فقط من زاويتِكِ الشّخصيّةِ. عندها فقط يُـمكنُ أن تفهمي



حدثَ الطَّلاقِ، أو دعيني أستخدمُ تَعابيرَكِ لأقولَ ، أن تدَّعي فَهْمَكِ لِحدثِ الطَّلاقِ.

ـ لم أفهم ما تقصدين .

ـ هل سألْتِ نفسَكِ لماذا قرَّرَ والداكِ الانفصالَ ؟

ـ لا داعي لأن أسألَ. كنتُ أرى جيِّدًا أنَّهما عاجزانِ عن التَّواصلِ. ما إن يبدأ بالكلام حتَّى يعلوَ صوتُهما. كنتُ أنظرُ إليهما، أبي يحكي في الوقتِ الَّذي تحكي فيه أمِّي. هذا يَعني أنَّهُ لم يكن يَسْمعُها، ولم تكن تَسْمَعُهُ. ويَتحوَّلُ الكلامُ إلى صراخٍ، كأنَّهُ يُريدُها أن تَسمعَ ، وكأنَّها تُريدُهُ أن يسمعَ. ويَتحوَّلُ الصّراخُ إلى تجريحٍ، كأنَّهُ يُريدُها أن تصمتَ، وكأنَّها تُريدُهُ أن يصمتَ. وعندما يصمتان ينقطعُ التَّواصلُ بينهما ، فيعودُ الهدوءُ يسكنُ غرفَ البيتِ، لكنَّهُ لم يكن أبدًا كهذا الهدوءِ الدَّافئِ الَّذي أشعرُ به عندما أزورُ بيوتَ صديقاتي. دائمًا أشعرُ بالبرد في بيتي، بالصَّقيع. لطالما سألْتُ نفسي : من أين يأتي هذا البردُ الَّذي يُقيمُ في الغرفِ والزَّوايا ؟ إلى أن اكتشَفْتُ أنَّ مصدرَهُ جفاءٌ يَنبعُ من قلبِ أبي، كما من قلبِ أمِّي.

ـ لا يا «زينة» ، لا تقولي هذا ، لأنَّكِ بِهذا الكلامِ إنَّما تَسدِّينَ في وجْهيْهِما بابَ العودةِ .

ـ العودة ؟

ـ نعم ، ستُدركين ، كما أدركْتُ أنا ، أنَّ الطَّلاقَ ليس سيِّئًا دائمًا. قد

يكونُ فرصةً للجميع كي يَعيشوا حياةً أكثرَ هدوءًا، وأكثر راحةً. وقد يكونُ فرصةً كي يَكتشفوا بأنَّ حياتَهم السَّابقةَ لم تكن بِهذا السّوءِ الَّذي اعتقدوه ، فإذا هي أفضلُ بكثيرٍ من غيرِها .

ـ هل هذا يعني أنَّ طلاقَ أبي وأمِّي فرصةٌ لهما كي يَكتشفا أنَّهما ارتكبا خطأً عندما اتَّخذا هذا القرار ؟

ـ أو ربَّما أنَّهما أحْسنا اتِّخاذَ القرارِ كي يكونا أكثرَ سعادةً .

ـ وحتَّى ذلك الوقت ، ماذا أفعل ؟

ـ عيشي حياتَكِ .



الفصل الثَّامن: بين القدرة والعجز



«عيشي حياتَكِ». بقي صوتُ «هبة» يتردَّدُ في أعماقي عندما عدْتُ إلى البيتِ. «عيشي حياتَكِ». هذا يعني أنَّ حياتي باتَتْ منفصلةً عن حياةِ أمِّي وحياةِ أبي في وقتٍ أنا لم أتقبَّل فيه بعد انفصالَهما عن بعضِهما البعض .

دخلْتُ إلى غرفةِ أمِّي. لا تزالُ تَجلسُ على طرفِ السَّريرِ، من دونِ حراكٍ. « هل حقًّا تريدين الطَّلاقَ من أبي؟». سألْتُ أمِّي الَّتي كانت بانتظارِ السُّؤالِ، فأجابَتْ بسرعةٍ، كأنَّها خافَتْ أن تنسى الجوابَ : «نعم».

ـــ ترى ما الَّذي تغيَّر بأبي حتَّى ما عدْتِ قادرةً على العيشِ معه ؟

ـــ لا أعرفُ. ما أعرفُهُ أنَّهُ ما عادَ، هو نفسُهُ، ذاكَ الرَّجلَ الَّذي التقيْتُهُ ذاتَ يوم ، وأحبَبْتُهُ ، ورضيتُ به زوجًا. لقد تغيَّرَ كثيرًا، صارَ قاسيًا وعنيفًا ، وما عادَ راضيًا ولا قانعًا ولا سعيدًا .

ـــ ربَّما عليْكِ أن تفعلي شيئًا .

ـــ حاولْتُ . حاولْتُ كثيرًا ، وما عاد باستطاعتي أن أفعلَ شيئًا .

ـــ والحلّ ؟

ـــ الطَّلاق ، إنَّهُ الحلُّ الأفضلُ. سأسيرُ أنا في اتِّجاهٍ، وهو في اتِّجاهٍ آخرَ. وهكذا ، لن نلتقيَ ، لن نتشاجرَ ، لن يَجرحَ بعضُنا الآخر ، لا قولاً ولا فعلاً . الطَّلاق ، إنَّهُ الحلُّ الأفضلُ.



ـــ وأنا ؟ هل فكَّرْتـما بي ؟

ـــ أنتِ ؟ ستعيشين حياتَكِ .

ـــ كيف تعيشُ فتاةٌ في الرَّابعةَ عشرةَ من عمرِها حياتَها وحيدةً بعدما انفصلَ والداها ؟

استغرَبَتْ أمِّي السؤالَ، ورمَقَتْني بتلكَ النَّظرةِ الَّتي أعرفُ معناها جيِّدًا. إنَّها نظرةُ التّأنيبِ. تؤنِّبُني على شعورٍ يؤلِـمُني. تؤنِّبُني على شعوري بالوحدةِ. أشعرُ أنِّي صرْتُ في هذا العالمِ وحيدةً ، فأمِّي ستكونُ في مكانٍ، وأبي سيكونُ في مكانٍ، وأنا ؟ ماذا عنِّي أنا ؟ مَن فكَّر بي أنا ؟ صرخْتُ في وجه أمِّي الَّتي، كشفَتْ لي ، وللمرَّةِ الأولى أنَّ قرارَ الطَّلاقِ اتَّخذاهُ منذ زمنٍ، وأجَّلا تنفيذَهُ بانتظارِ أن أكبُرَ قليلاً لأفهمَ أكثر.

« ومن قالَ لكما بأنَّني كبُرْتُ إلى هذا الحدِّ الَّذي ما عدْتُ أشعرُ فيه بِحاجةٍ إلى وجودِكُما الدَّائم معي؟ من قالَ لكما بأنَّني كبُرْتُ وصرْتُ أفهمُ كيف يتحوَّلُ الحبُّ إلى كرهٍ، والتَّفاهمُ إلى خصامٍ، وقرارُ الارتباطِ إلى انفصالٍ؟ من قالَ لكما بأنَّكِ ستكونين سعيدةً إذا انفصلْتِ عن أبي، وأنّه سيكون سعيدًا إذا انفصلَ عنكِ ، وأنَّني سأكونُ بِخيرٍ وأنا أتنقَّلُ بينكما؟ لا تقولي أبدًا بأنَّكما فكَّرْتُـما بي قبل أن تَتخذا قرارَ طلاقِكُما ، أنتما لم تُفكِّرا بي أبدًا أبدًا أبدًا ، ولو فعلْتُما ، لما اتَّخذْتُـما هذا القرارَ » .



حاولَتْ أمِّي أن تقولَ شيئًا ، لكنَّني لم أكنْ قادرةً على التَّواصلِ معها، بعدما ثُرْتُ في وجْهِها، لذا تركْتُها خلفي ومشيْتُ إلى غرفتي، دخلْتُها، وأغلقْتُ البابَ ورائي. تَـمدَّدْتُ على سريري، أغمضْتُ عينيَّ، وتَـمنَّيْتُ أن أفتحَهما بعد قليلٍ لأكتشفَ أنَّ كلَّ ما مرَرْتُ به اليومَ كان كابوسًا ، مجرَّد كابوسٍ سأفيقُ منه، وأنفضهُ عنِّي بعد قليل.

أمنيتي لم تتحقَّقْ. أبي لا يزالُ جالسًا حيثُ تركْتُهُ منذ ساعاتٍ. وأمِّي أيضًا لا تزال في مكانِها لم تتحرَّكْ . شعرْتُ بأنَّني كنتُ قاسيةً في حديثي معها، وأنَّني لم أنتبهْ إلى أنَّها تبذلُ جهدًا كبيرًا لتخفيَ مشاعرَ الخيبةِ من الحالةِ الَّتي وصلَتْ إليها علاقَتُها بأبي، كما تبذلُ جهدًا أكبرَ لتخفيَ مشاعرَ الفشلِ. فهي أبدًا ، منذُ أعلَنَتْ قرارَها، لم تبكِ، ولم

تَغضبْ، ولم تصرخْ . كانت هادئةً هدوءًا غيرَ طبيعيٍّ . إذا تكلَّمَتْ، فكلماتٌ قليلةٌ، بصوتٍ يكادُ لا يُسمعُ . وإذا صمتَتْ يأخذُها الصَّمْتُ بعيدًا، فكأنَّها خارجَ المكانِ، وخارجَ الزَّمانِ. هذه المرأةُ لا تُشبهُ أمِّي، وردَّاتُ فعلِها لا تُشبهُ ردَّاتِ فعلِ أمِّي. من أين أتَتْ بكلِّ هذه القدرةِ على إخفاءِ ما يدورُ في أعماقِها، هي الَّتي تَكشفُها النَّظرةُ ، والكلمةُ ، والنَّبرةُ ؟



واكتشفْتُ ، في تلك اللَّحظةِ ، أنَّ ما يَحصلُ مع أمِّي لا يتعلَّقُ بقدرتِها على إخفاءِ مشاعرِها، بل في عجزِها عن إظهارِ تلك المشاعرِ الَّتي تكشفُ ضعفَها، هي الَّتي لم تكن يومًا تَقبلُ أن تظهرَ بـمظهرِ العاجزِ، إذْ لطالما آمنت بقدرةِ الإنسانِ على النَّجاح ، وها هي تُواجهُ أقسى أنواعِ الفشلِ: الفشلُ في العيشِ ضمن أسرةٍ.

الفصل التَّاسع: مفترق طريق

عدْتُ من جديدٍ لأطرقَ بابَ «هبة» . أريدُ أن أعرفَ ماذا قصدَتْ بقولِها : «عيشي حياتَكِ» ؟ وكيف يُمكنني أن أعيشَ حياتي بعيدًا عن والديَّ؟



ابتسمَتْ «هبة» عندما رأتْني ثانيةً ، وأدخَلَتْني إلى غرفةِ نومِها وقالت : «هنا أعيشُ جزءًا كبيرًا من حياتي.

عندما انفصلَ والداي أحدثَ طلاقُهما في حياتي مكانًا جديدًا. صارَ لي مكانٌ في المنْزلِ الَّذي انتقلَ إليه أبي، ومكانٌ آخرُ في هذا المنْزلِ الَّذي انتقلَتْ إليه أمِّي، وذلك بعدما باعا البيتَ الَّذي كان يَجمعُنا، في محاولةٍ للهروبِ من الماضي الَّذي تَمسَّكْتُ وحدي بذكرياتِه. صارَ

عندي بدلَ السَّريرِ سريران، وبدلَ الخزانةِ خزانتان، وبدلَ المرآة مرآتان ، واحدةٌ أراني فيها مع أبي، وأخرى أراني فيها مع أمّي. ولأنّهُ لم يكن سهلاً أن أنقلَ أمتعتي في كلِّ مرّةٍ أنتقلُ فيها من مكانٍ إلى مكانٍ، صارَ لي أمتعةٌ في المكانيْنِ. حتّى أبسطُ الأشياءِ صار عندي منها اثنانِ: فرشاةُ أسنانٍ، وفرشاةُ شعرٍ، وقارورةُ عطرٍ، وأدواتُ زينةٍ. وحتّى الدّواءُ الّذي أتنشّقُهُ عندما أتعرّضُ لنوبةٍ من نوباتِ الرّبو ، صار عندي منه اثنان. يَحصلُ أحيانًا، ويَخطر لي أن أرتديَ في ذلك اليوم ثوبًا معيّنًا. أفتحُ الخزانةَ وأبْحثُ عنه، وعندما لا أجدُهُ أُدركُ أنّهُ في الخزانةِ الثّانيةِ، في غرفتي، في البيتِ الثّاني» .

تضحكُ «هبة» ، تَطمحُ أن تنقلَ عدوى الضّحكِ إليَّ. وعندما تتنبّهُ إلى أنّها فشلَتْ يكونُ الحزنُ قد أخذَني بعيدًا عنها. لا ... أقولُ بصوتٍ مرتفعٍ. « لا يُـمكنُ أن يكونَ الطّلاقُ مجرّدَ مكانٍ جديدٍ أقصدُهُ مع أمّي الّتي تـجمعُ أغراضَها استعدادًا لمغادرةِ البيتِ. الطّلاقُ فراغٌ يُحْدثُهُ رحيل الأحبّةِ من المكانِ».

تَضحكُ «هبة» من جديد ، وتقول : «ما قُلْته هو تـمامًا ما قُلْتُهُ أنا. أنت قُلْتهِ بسلبيّةٍ. وأنا قلْتُهُ بإيجابيّةٍ. «رحيلُ الأحبّةِ من المكانِ» يَعني بالضّرورةِ رحيلَهم إلى مكانٍ جديد. مكانٌ يعودُ فيه كلٌّ إلى نفسِهِ ، بعدما صارَ بينه وبين الآخرِ مسافةٌ كان يَتمنّاها ليعيشَ بِهدوءٍ ، من دون خصامٍ ،

من دون أخذٍ وردٍّ وجدلٍ يبدأُ ولا ينتهي إلاّ وقد أنْهى معه فرصةً جديدةً كان يُـمكنُ أن يـمنحَها طرفٌ إلى الآخرِ لتستمرَّ حياتُهما معًا . مسافةٌ هي كلُّ ما يَحتاجُ إليها الطّرفانِ ليستعيدا الأحداثَ الماضيةَ ، وينظرَ كلٌّ منهما إلى مرآةٍ ذاتِه في محاولةٍ لرؤيةِ ما لم يكن قادرًا على رؤيتِه. مسافةٌ أنتِ أيضًا بِحاجةٍ إليها كي تُدركي إذا كان هذا الواقعُ الجديدُ ضرورةً، أم كان خطأً جديدًا يُضافُ إلى أخطاءِ الماضي الكثيرة » .

أعترفُ أنَّ حديثي مع «هبة» مَنَحني راحةً داخليَّةً ، وكذلك فرصةً لأرى الأمورَ من زاويةٍ مختلفةٍ. وقبلَ أن أمضيَ التفتُّ إليها وقلْتُ: « أرجو أن يبقى قرارُ والديّ سرًّا بيننا » . عندها انتفضَتْ «هبة» وقالت :«اسمعي يا



«زينة» ، طلاقُ والديْكِ ليس عيبًا لتخجلي به ، ولن يكونَ سرًّا لتُخفيه . إنَّه حقيقةٌ عليكِ أن تتعاطي معها بِجرأةٍ . أنتِ لم ترتكبي خطأً لتخافي من عواقبِهِ، وهما بقرارهما لم يرتكبا خطأً، بل قد يكونان في طريقِ تصحيحِ خطأ سابق ارتكباه عندما اعتقدا أنَّهما يصلحانِ أن يكونا رفيقيْ درب . عليكِ أن تكوني شجاعةً وتُعطيهما حقَّ البحثِ عن السَّعادةِ، إذا شعرا بأنَّهما أضاعاها عند مفترقِ طريق. يبقى أن تنتبهي كي لا يقودَكِ فشلُهما إلى فشلٍ آخرَ كثيرًا ما رأيْتُهُ دموعًا في عيْنيْكِ، وعصبيّةً في ردّاتِ فعلِكِ، وتراجعًا متزايدًا في تَحصيلِكِ العلميّ. انتبهي جيّدًا يا «زينة» فحياتُكِ هي أيضًا يُمكنُ أن تضيعَ عند مفترقِ طريق ».



الفصل العاشر: مسيرة حياة

خرجْتُ من بيتِ «هبة» ، لكنَّني لم أكن قادرةً على العودةِ إلى البيتِ. نزلْتُ إلى الشَّارعِ، وسِرْتُ تحتَ المطرِ. كنتُ بِحاجةٍ إلى المطرِ كي



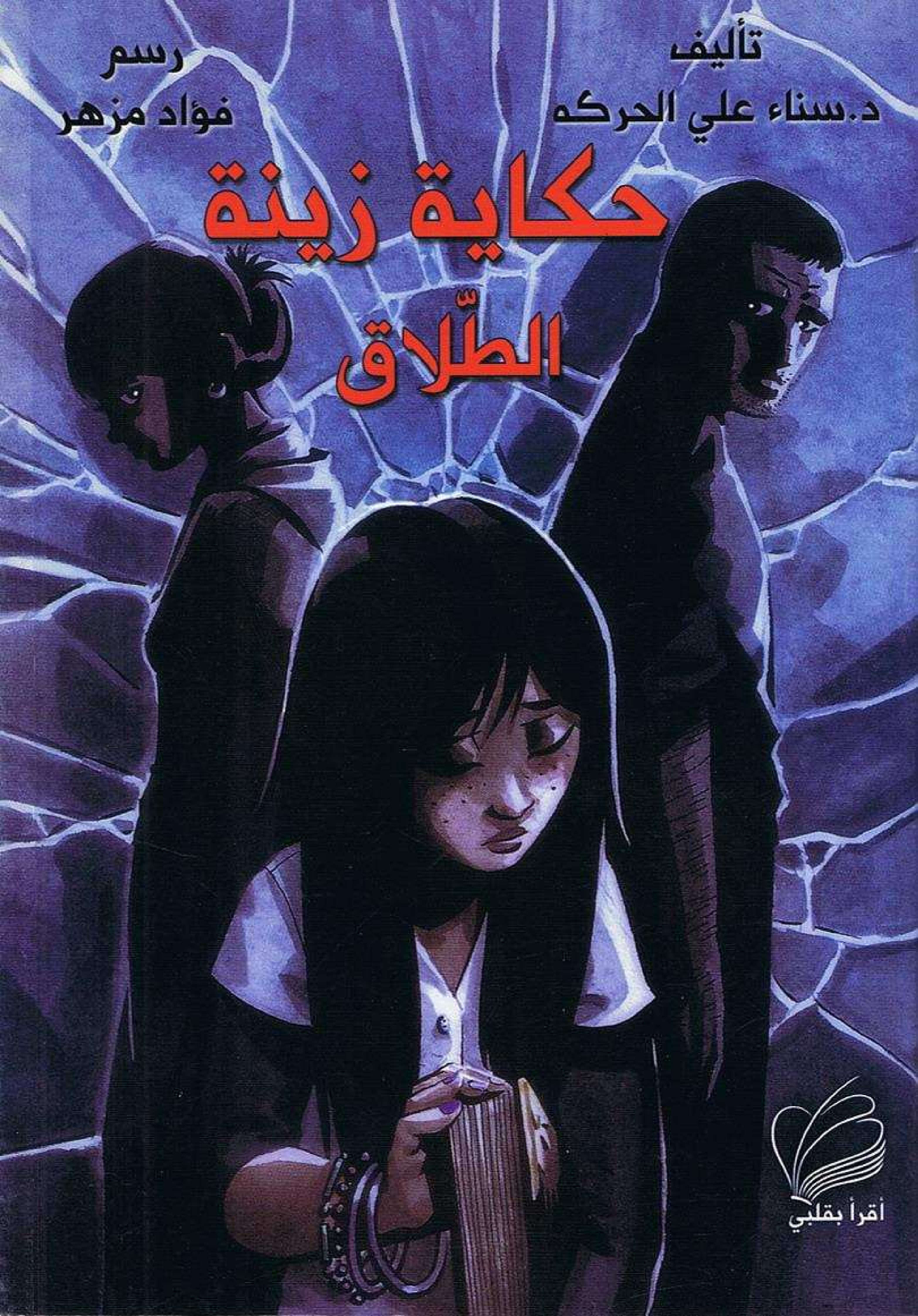
يُزيلَ عنّي هذا الشّعورَ بالفشلِ. أشعرُ أنّنا كعائلة فشلْنا في أن نبقى معًا. ولكن قد تكون «هبة» على حقّ. يَجبُ ألاّ يقودَنا هذا الفشلُ إلى فشلٍ آخرَ. نتائجُ امتحاناتي، في تراجعٍ مستمرٍّ، لأنّني ربّما أرى في هذا الطّلاقِ نهايةَ حياتنا. «هبة» على حقٍّ، عليَّ أن أنظرَ إلى الصّورةِ من كلِّ الزّوايا. ربّما يَكونُ في هذا الطّلاقِ بداية حياةٍ جديدةٍ لنا جميعًا. أمّي بحاجةٍ إلى مساحةٍ تَفصلُها عن أبي، وهو بِدورِه بِحاجةٍ إلى مساحةٍ تَفصلُهُ عن أمّي، وأنا بِحاجةٍ إلى مساحةٍ تَفصلني عن خلافاتهما، وتُعيدُني إلى كتبي ودفاتري وحياتي. يَكفيني أن أرى أمّي سعيدةً، وأن أرى أبي سعيدًا، وأن أشعرَ بِمحبّتهما لي، وللحياةِ الّتي قرّرا أن يُكملاها كلٌّ في اتّجاه. وإلى أن أعرفَ إذا كان زواجُهما هو الخطأ، أم طلاقهما، سيمضي وقتٌ، وحتّى ذلك الوقت، آملُ أن تفتحَ لي الحياةُ أبوابَها لأُكملَ بدوري مسيرةَ حياتي.

الفهرس

تأليف
د.سناء علي الحركه

رسم
فؤاد مزهر

حكاية زينة
الطّلاق



أقرأ بقلبي